اسم الدرس : تفسير سورة الأعراف (١٩) | الآيات [١٦٧ : ١٧٨]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، نستكمل بإذن الله عز وجل وعَونِه سبحانه وتعالى وتوفيقه وتسديده، نرجو منه السداد والعون والتوفيق، نستكمل بإذن الله مجالس سورة الأعراف، كنَّا قد توقفنا عند آية ١٦٧.

بإذن الله عز وجل نستكمل من حيث توقفنا المرة الماضية، كنا قد انتهينا من قصة أصحاب السبت الذين اعتدوا في السبت و كيف أن الله عز وجل عاقَبهم، وكانت عقوبة شديدة بأمرٍ منه سبحانه وتعالى، قال لهم {كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} فكانوا قردة، و لم يستطيعوا الامتناع، فأطاعت الأجسام أمر ربها بعد أن أعرضوا قبل ذلك عن طاعته سبحانه وتعالى، بعد أن تحايلوا وراوغوا لئلا يُنفذوا شرعه، فجاء هذا الأمر القدريّ الكونيّ منه سبحانه وتعالى {كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} فلم يستطيعوا الممانعة ولا المراوغة كما فعلوا من قبل.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

ثم قال الله سبحانه وتعالى أنَّ هذا العذاب على اليهود مستمرٌّ إلى يوم القيامة، وأن الله عز وجل سوف يُسلط عليهم كل فترة من فترات الزمان مَنْ يُنَغِّص عليهم معيشتهم، ومن يسومهم سوء العذاب، قال الله سبحانه وتعالى {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} إذا تابوا وأنابوا وآمنوا بما نُزِّل على محمد صلى الله عليه وسلم.

تسليط المؤمنين على اليهود إلى يوم القيامة

كلمة {إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ} جعلت بعض المفسرين –ولاسيَّما المعاصرين– يقف وقفة طويلة مع هذه الكلمة، لأن غالب المتقدمين لما فسَّروا هذه الآية، كان المسلمون هم المنتصرين على اليهود، وكانوا يأخذون منهم الجزية، فالمفسرون المتقدمون لما فسّروا هذه الآية كانوا يفسرونها بالجزية، وكانوا يتحدثون عن واقعٍ هم يعيشونه.

أما المتأخرون الآن يرون أن اليهود هم المتسلطون على العالم وأن المسلمين في ذلةٍ واستضعاف، فحاولوا تفسير هذا بإحدى الأوجه:

- منها مثلًا أن التسليط لا يشترط منه الاستمرار، لكنه يمكن أن يحدث كل فترة من الفترات، وذلك كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم (لا يأتي على الناس زمانٌ إلا والذى بعده شرٌّ منه)[١]، أي زمانٌ يأتي الذي بعده شرٌّ منه، فقال بعضهم للحسن البصرى "فكيف بعمر بن عبد العزيز؟" فعهد عمر بن عبد العزيز أفضل ممن قبله؛ فلو فسَّرنا هذا الحديث تفسيرًا لفظيًّا مطردًا فكيف جاء سيدنا عمر بن عبد العزيز وكان أفضل ممن قبله؟ فقال "لابد من تنفيس"، أي لا بد من لحظاتٍ يحدث فيها انقطاع.

فقالوا أنَّ هناك بعض المراحل الزمنية يتسلط اليهود على غيرهم من الشعوب أو حتى على غيرهم من الأديان ولا سيَّما على غيرهم من المسلمين، لكن العاقبة والنهاية أن الصراع النهائي بين المسلمين وبين اليهود، وأنَّ الله عز وجل سوف يُسَلِّط المسلمين على اليهود، وتكون الحرب النهائية كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود)[٢]، وهؤلاء هم البعث الذين سيبعثهم الله عز وجل على اليهود ليسوموهم سوء العذاب.

فقالوا أن قوله {إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ}، **أي ستأتي فترات زمنية –رغم كونها متقطعة– لكن العاقبة والنهاية تكون بتسليط أهل الإيمان على اليهود**، أسأل الله عز وجل أن يستعملنا في نصرة دينه، وأن يجعلنا ممن يبعثهم على اليهود.

- وقيل أنَّ هذا التسليط على اليهود كما أنه عقوبةٌ، أيضًا **قد يعاقب أهل الإيمان بسبب بُعدُهم ومعاصيهم**، فسنن الله عز وجل متكاملة ومتداخلة، وليست كلُّ سُنَّةٍ تعمل بمفردها، فتوجد سنن لنصرة أهل الإيمان وسننٌ لخذلان أو لعقوبة الكفار، وكذلك هناك سننٌ لمتى يعاقب الله عز وجل أهل الطاعة، وهناك سننٌ لمتى يعطي الله عز وجل النصرَ للكفار ويداول النصر، فيُعطي النصر مرة للكُفار، ومرة لأهل الإيمان، وذلك فيه حِكَم كما حدث في عزوة أُحُد رغم أنَّ الوعد أن ينصر الله عز وجل أهل الإيمان، ولكن كيف هزم المسلمون في أحد؟ ذكر الله عز وجل حكمًا كثيرة في سورة (آل عمران) تبين لنا حِكَم المداولة بين الناس {وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ}[آل عمران: ١٤٠-١٤١]، وذُكِرت في هذه السورة حِكَمًا كثيرة جدًّا، فقالوا أيضًا أنَّ الفترات التي يعلو فيها اليهود هي فترات بلاء لأهل الإيمان كما قال الله سبحانه وتعالى {ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ}[محمد: ٤].

---

١ [عن أنس بن مالك:] أَتَيْنا أَنَسَ بنَ مالِكٍ، فَشَكَوْنا إلَيْهِ ما نَلْقى مِنَ الحَجّاجِ، فَقالَ: اصْبِرُوا، فإنَّه لا يَأْتي علَيْكُمْ زَمانٌ إلّا الذي بَعْدَهُ شَرٌّ منه، حتّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ سَمِعْتُهُ مِن نَبِيِّكُمْ ﷺ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٧٠٦٨ • [صحيح]

٢ [عن أبي هريرة:] لا تَقُومُ السّاعَةُ حتّى يُقاتِلَ المُسْلِمُونَ اليَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ المُسْلِمُونَ حتّى يَخْتَبِئَ اليَهُودِيُّ مِن وراءِ الحَجَرِ والشَّجَرِ، فيَقولُ الحَجَرُ أوِ الشَّجَرُ: يا مُسْلِمُ يا عَبْدَ اللهِ هذا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعالَ فاقْتُلْهُ، إلّا الغَرْقَدَ، فإنَّه مِن شَجَرِ اليَهُودِ.

مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٩٢٢ • [صحيح]

وماذا سيحدث لمن سيموت في هذه الفترة في سبيل الله؟ {وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ* سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ* وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ}[محمد:٤-٦]، نسأل الله عز وجل أن يرزقنا شهادةً في سبيله.

إذًا هذه الفترات البينية تكون بلاءً لأهل الإيمان، وتسليط اليهود على المؤمنين في هذه الفترات يكون بلاءً واختبارًا وتمحيصًا لأهل الإيمان.

{وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ} أعلَمَ ربُّك سبحانه وتعالى وأعلَمَنا بذلك في القرآن {لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ}، بل حتى في فترات الاستضعاف تجد أن الله يبعث من يُنَغِّص عليهم معيشتهم؛ كما يُسَلِّط الله عز وجل بعضًا من أهل فلسطين على اليهود ليُنَغِّصوا عليهم معيشتهم في كل فترة، فهم لن يعيشوا حياة تامة الراحة أبدًا، بل في كل فترة من الفترات يبعث الله عز وجل ويستعمل أُناسًا ليسوموا اليهود سوءَ العذاب {إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}.

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

ثم قال الله سبحانه وتعالى أن اليهود تفرَّقوا أُممًا في الأرض، وكان في كل بلدةٍ تقريبًا يهود حتى تجمعوا في فلسطين، ولكن لا يزال بقايا من اليهود في كل بلدان العالم، وتسلطهم على العالم وتفرقهم فيه هو الذي يجعلهم قادرين على إفساد المجتمعات.

يُوجَد كتابٌ ظريفٌ يُسمَّى "اليهود وراء كل جريمة" يتحدَّث عن كيفية انتشارهم في البلاد وكيف ينشرون أفكارهم، فقال الله سبحانه وتعالى {وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ} أى الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم {وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ}، وقيل {مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ} أي الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

لِمَ قُلنا أنَّ الصالحون هنا بمعنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ استكمالًا للقصة السابقة، لأن القصة السابقة ذَكَرت أن هناك طائفة كانت صالحة مصلحة أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر.

{مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ}، أي الطائفة الأخرى التي لم تكن صالحة ابتلاهم الله بالحسنات والسيئات {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، والابتلاء والمداولة بين الحسنات والسيئات ذُكِرت أكثر من مرة في هذه السورة، {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} أي يتوبون إلى الله سبحانه وتعالى.

فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

ثم قال الله سبحانه وتعالى {فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ}، المجموعة التي كانت في عهد سيدنا موسى وبعد سيدنا موسى وعاشوا كل التفاصيل السابقة أتى من بعدهم طائفة من أهل الكتاب {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}.

الوصف الأول للجيل الفاسد

{فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ} جاء من بعدهم جيلٌ، كثير من أهل العلم وكثيرٌ مِنَ المفسرين قال إنَّ كلمة "خَلْفٌ" بسكون اللام غير كلمة "خَلَف"، وأن كلمة "خَلْفٌ" بسكون اللام تفيد الجيل الفاسد كاللبن الذي يُترك فترة طويلة، فيفسد وتتغير رائحته وطعمه فيقولون عليه "الخَلْف"، أو هو تغير رائحة فم الصائم، فالخَلْفُ هو تغير الرائحة وتغير الإنسان، فإذا تغير هذا الجيل وتنكر لما كان عليه الآباء الصالحون –فعندما يتغير هذا الجيل ويفسد– يسمون خَلْفًا، فقالوا أن سكون اللام يأتي للجيل الفاسد –وهذا قول كثيرٌ من أهل اللغة– لكن الجيل الصالح يُقال عنه "كانوا –أي الجيل الصالح– خير "خلَفٍ" بفتح اللام، **فقالوا اللام المفتوحة للجيل الصالح، والساكنة للجيل الفاسد.**

ولكن وَرَدَ في بعض الأشعار استعمال اللام الساكنة مع الجيل الصالح والعكس، لذلك قال بعضهم –كابن عاشور وبعض المتأخرين– أنَّ القضية ليست في سكون اللام ولا في فتحها، لكن القضية في السياق الذي سيُحَدِّد كون هذا الجيل صالحًا أم فاسدًا، فحينئذٍ تظهر إشكالية كَوْن كلمة "خَلْفٌ" جاءت مرتين في القرآن، وفي كلتا المرتين كانت مذمومة سواءً في سورة الأعراف {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ}، أو في سورة مريم {فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا}[مريم:٥٩] ففي المرتين جاءت مذمومة،

فآثر المفسرون رأي جماهير اللغة، وجماهير المفسرين أنَّ "خَلْفٌ" بسكون اللام غالبًا ما تكون مذمومة، {فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ}، فهو جيلٌ فاسد تغيَّر وتنكَّر وأعرض عن الشرع. إذًا فالجيل يفسد عندما يعرض عن الشرع.

{فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ} أي جيل فاسد؟ لماذا كان هذا الجيل فاسدًا؟ بين الله عز وجل عندما تريد أن تقول على جيل أنه جيل فاسد، ما هي المعايير؟ قلنا في أول السورة أنه تُوجد معايير وموازين القسط يوم القيامة، وتكلمنا عن الموازين الدنيوية والمعايير المختلفة عند أهل الدنيا، إذًا ما هي المعايير التي نَحكُم بها على جيل بأنه جيل فاسد أو جيل صالح؟ ما هي هذه المعايير؟

عندما جاء الموضوعان في القرآن لوصف "خلْف" بالجيل الفاسد، أول وصف هنا في سورة الأعراف:

- {وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا}

{وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ} قال العلماء هل كلمة {وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ} هل وراثة الكتاب ذاتها مَذَمَّة؟ هل تعني أنهم لم يتعبوا في نصرة الكتاب ولم يَتَلقوا الكتاب بعزيمة بل كان مجرد وراثة؟ قال بعضهم: لا، لأن الله يقول في سورة فاطر: {ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ}[فاطر:٣٢]، إذًا فوراثة الكتاب ذاتها ليست مَذَمَّة.

بعضهم حاول أن يفرق بين–مثل ابن القيم– أنهم ورثوا وأن الله هو الذي أورثهم كما تأتي أحيانًا {أوتوا الكتاب} وبين {آتيناهم الكتاب}، فغالبًا "الذين أوتوا الكتاب" تأتي في وضع الذم، لكن "آتيناهم الكتاب" تأتي في وضع المدح، كما تأتي "ورثوا الكتاب" في وضع الذم، لكن "أورثنا الكتاب" تأتي في وضع المدح.

فهنا قال "وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ"، قد يكون وصفٌ فيه ذمٌ؛ أنهم لم يتعبوا في الكتاب، ولكن تَلَقُّوه تَلَقِّي الوارث الذي مات أبوه، فورث الدين ولم يتعب فيه، عكس جيل الصحابة الذين نشروا الدين وبذلوا أموالهم ودمائهم وأنفسهم وأولادهم لنصرة الدين، هؤلاء ورثوا الكتاب.

وإذا لم تكن المذَمَّة في هذا الوصف، إذًا فأَيْن المذَمَّة؟

من معايير الحكم على جيل بأنه فاسد: ١. يأخذوا الشيء الحقير الزائل

{وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ}، **فهذا الدين الذي وَرِثوه لم يؤثر فيهم في رغبتهم في الآخرة**، بل استمرت رغبتهم في الدنيا كما هي، وأصبح كلُّ همِّهم في الدنيا، أي أمر دنيوي يقابلهم يأخذونه حتى لو كان حرامًا.

{يَأۡخُذُونَ} بصيغة المضارع المستمر، {فخلف من بعدهم خلف وَرِثُواْ الكتاب} بصيغة الماضي، {يأخذون عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ} العرض هو المتاع الزائل، يقول "يَعْرِض لي ثم يزول" فالعَرَض دائمًا في القرآن متاعٌ زائلٌ سواءً كان مال أو غير ذلك، ففيه ذمٌّ للدنيا أنها أمرٌ زائلٌ، فكيف تختارون الفاني على الباقي؟ {يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ} {هذا الأدنى} إشارة إلى الأمر الدنيوي الحقير، واسم الإشارة هنا للقريب لتحقيره، **أي يأخذوا الشيء الحقير الزائل الفاني القليل**.

تساءل كثيرٌ من أهل العلم وجمهور المفسرين عما هو {عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ}؟ ما هو المال الذي يأخذونه ويتَعَارَض مع {وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ}؟

أي هل كل دنيا يأخذها الإنسان تتعارض مع كلمة "وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ"؟

لا، قالوا -المقصود-: الرشوة في الحكم.

{يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ}، ما المقصود؟ جمهور المفسرين قالوا الرشوة في الحكم.

وكان القاضي من بني إسرائيل وارث للكتاب، عالم بما في الكتاب، يعلم أحكام الشرع، ويعلم أحكام الشريعة، لكن حينما يحكم، كان يأخذ رشوة، حينما يأتيه المِحِق كما في الأثر المروي عن ابن زيد ذكره الإمام الطبري، قال عن ابن زيد: كان يأتيه المِحِق، فيخرج له التوراة يحكم بها ويأخذ منه رشوة بالرغم من أن معه الحق، ولكن يأخذ منه رشوة حتى يُخرج التوراة ويحكم بما في التوراة. أما إذا جاءه المبطل؛ جاء قبله أو دفع أكثر-أيًا كان- أو كان واسطته أعلى، يخرج كتابًا آخر كتبوه هم بأيديهم ينصر المبطل.

فكان كل الاختيارات موجودة عندهم، كل شيء موجود كله بالورق وكله مكتوب، وأهم شيء عندهم هو من سيدفع النقود، والذي يدفع هو الذي سيُقضى له حاجته.

إذًا {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ}: أي يأخذون نقودًا لتغيير أحكام الشريعة بما يوافق هوى الناس.

من معايير الحكم على جيل بأنه فاسد: ٢. تحريف الشريعة

فوراثة الكتاب لم تنفعهم، بل ضيعوا أحكام الشريعة، ضيعوا أحكام الشرع. **فإذا كانت الفرقة السابقة –أصحاب السبت – قاموا بتحريف في التطبيق، فهذه الفرقة قاموا بتحريف في الشريعة نفسها.**

أي أن هؤلاء حاولوا أن يراوغوا ويقولوا: ربنا لم يأمرنا ألا نصطاد يوم الجمعة فكانوا يضعون الشباك الجمعة ويجمعونها يوم الأحد..، أو أيًا كانت تفاصيل ما فعلوه كما ذكرنا المرة الماضية.

أما هذه الفرقة فحرفوا الكتاب {فَوَيلٌ لِّلَّذينَ يَكتُبونَ الكِتابَ بِأَيديهِم ثُمَّ يَقولونَ هذا مِن عِندِ اللَّهِ} لماذا؟ {لِيَشتَروا بِهِ ثَمَنًا قَليلًا} فكانوا يريدون نقودًا {فَوَيلٌ لَهُم مِمّا كَتَبَت أَيديهِم وَوَيلٌ لَهُم مِمّا يَكسِبونَ} [البقرة:٧٩] كانوا يكسبون نقودًا من هذا الأمر.

{يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ} فكان يرتكب هذه الجريمة البشعة المنكرة: أنه يغير في الشريعة، يغير ويأخذ المال لأجل التغيير في شرع الله سبحانه وتعالى، يأخذ الرشوة على الحكم.

من معايير الحكم على جيل بأنه فاسد: ٣. توبتهم لم تكن صادقة

{وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا} فلا يأخذون عرض هذا الأدنى فيصيبهم الندم والألم ويقولون: يارب اغفر لنا، لا، فهُنا لم يتوبوا؛ كلمة: {وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا} لم يقصدوا بها التوبة.

هناك من يقوم بالمعصية ويندم ويبكي ويتوب ويقول: رب اغفر لي، وهناك من يعمل معصية وحين تكلمه يقول – باستهانة–: ربنا سيغفر لي...ربنا غفور رحيم لا تقلق أنت ولا تتدخل.

وهكذا، فهم حتى لم يقولوا: ربنا، بل قالوا: {سَيُغْفَرُ لَنَا} بنوا الفعل لغير الفاعل {سَيُغْفَرُ لَنَا} لم يقولوا حتى لفظة الله، لم يقولوا ربنا يغفر لنا إن شاء الله ونتوب إليه بل قالوا {سيُغفر لنا}.

ودليل أنهم كذابون وأن هذه ليست توبة صادقة: {وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ}. ولو جاءه اليوم التالي شخصًا آخر ودفع له، يأخذ منه. وحين ينصحه أحد ماذا يقول؟ يقولون سيغفر لنا.

لذلك بعض أهل العلم قالوا: لمن يقولون "سيغفر لنا"؟

- فبعضهم قال : يقول للناصح الذي يأتي وينصحه.

فيأتي أحد ينصحه في الله يقول له اتق الله أنت غيرت الحكم، فيقول له لا شأن لك سيُغفر لنا! فيقول له إذًا تب إلى الله يقول له سأتوب، ربنا يغفر لي ثم يأتي اليوم التالي فيقوم بنفس العمل.

- أو أنهم يقولون لأنفسهم، حين تحدثهم النفس، الوازع الداخلي، الفطرة، أو بقايا الفطرة –لأنه سيأتي كلام عن الفطرة– فيقولون لبقايا الفطرة السليمة، فالفطرة السليمة بداخلهم تئن وواعظ الله في قلب كل مسلم ينادي عليهم، فيحدثون أنفسهم –كأنه يميت الفطرة– ويقولون سيغفر لنا بإذن الله.

وهذا ما يحدث حينما يهم أحدهم ليفعل شيئًا خاطئًا فيحاول بينه وبين نفسه أن يشرعنه لنفسه، حتى في المستحبات، فمثلًا تجده داخلًا لينام فنفسه تقول له ألن تصلي قيام الليل؟ فيقول لها: هو في الأصل سُنة. ولم يقل له أحد أنه فرض، ولكنه يراضي نفسه. ثم يقول عن صلاة الجماعة: هي في الأصل سنة،. وهكذا يظل يقول لنفسه هذا ليس مفروضًا، بحيث أنه ينام وضميره لا يأنبه، هو يريد أن ينام وضميره مطمئن. وهكذا كانوا يريدون أن يأخذوا الرشوة فيحدثون أنفسهم بهذا الكلام.

إذًا قال المفسرون أن هذا الكلام إما : كلام للناصح أو كلام للنفس التي هي بقايا الفطرة.

لا تتمنى الفتنة

{وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ}

{وَإِن يَأْتِهِمْ}: من الذي يأتي؟ بعض المفسرين قالوا : وإن يأت نفس القاضي، القاضي نفسه يقول أنا سأتوب يريد بذلك أن يخدع من ينصحه واليوم التالي يأخذ الرشوة مرة أخرى.

وبعضهم قالوا لا، وهناك أثر مروى عن السدي ذكره الإمام الطبري أيضًا قال:

كان قضاة بني إسرائيل أو العلماء من بني إسرائيل ينصبون قاضيًا ليحكم، فهذا القاضي يأخذ الرشوة في الحكم فيجتمعون ويقولون: كيف نسكت؟ لا يجوز لنا أن نسكت عليه إنه يأخذ رشوة في الحكم! وكيف يفعل هذا؟

ويستنكرون ويقولون كيف يبدل أحكام الشريعة؟! ويظلون يتكلمون فترة ويقولون أنه مجرم يأخذ رشوة ويغير في الحكم... حتى يتفقوا مع بعضهم البعض على نزعه وأن يأتوا بقاض آخر مكانه منهم -ممن يخاف على الشريعة-.

فينزعون هذا القاضي وينقلبون عليه ويأتوا بقاض آخر مكانه. ثم تجد القاضي الذي كان وسطهم وكان يستنكر على الأول يقوم بنفس العمل! {وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ}

لأنه أحيانًا أنت تستنكر لأنك لم تقع في الفتنة.

أحيانًا أنت تستنكر لأنك لم تذق طعم الفتنة، لم تذق طعم المال. فهناك من يستنكر ولكن حينما يوضع في نفس الموقف، مثل القاضي الثاني الذي جاء بَدَلًا من الأول وأخذ الرشوة مثله هو لم يكن كاذبًا حينما كان ينكر عليه. فحينما يجتمعون مع بعضهم البعض ويقولون كيف يأخذ فلان رشوة؟! لم يكن كذابًا، ولكنه لم يكن قد وضع في الفتنة بعد. نسأل الله السلامة والعافية؛ لذلك لا تتمنى الفتنة و(لا تتمنوا لقاء العدو)[٣].

من معايير الحكم على جيل بأنه فاسد: ٤. قولهم على الله غير الحق

{وَإِن يَأۡتِهِمۡ} أي وإن يأت غيرهم {عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ} أي ألم يأخذ الله عليهم الميثاق ألا يكتموا الشرع و{لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ}[آل عمران:١٨٧]؟

ومن أشد الآيات -نسأل الله السلامة والعافية- من أشد الآيات على أهل العلم هذه الآية: {لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ}

وهنا هذه الآية: {أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ} وهذا هو استدلال جمهور المفسرين أن معنى {يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ} في الآية: أي يأخذون الرشوة في تغيير حكم الله، لأنهم قالوا على الله بغير علم.

٣ [عن موسى بن عقبة:] عَنْ أَبِي النَّضْرِ، عن كِتابِ رَجُلٍ مِن أَسْلَمَ، مِن أَصْحابِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ يُقالُ له: عبدُ اللهِ بنُ أَبِي أَوْفى، فَكَتَبَ إلى عُمَرَ بنِ عُبَيْدِ اللهِ حِينَ سارَ إلى الحَرُورِيَّةِ، يُخْبِرُهُ، أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ كانَ في بَعْضِ أيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيها العَدُوَّ، يَنْتَظِرُ حتَّى إذا مالَتِ الشَّمْسُ قامَ فيهم، فَقالَ: يا أيُّها النَّاسُ، لا تَتَمَنَّوْا لِقاءَ العَدُوِّ، واسْألُوا اللَّهَ العافِيَةَ، فإذا لَقِيتُمُوهُمْ فاصْبِرُوا، واعْلَمُوا أنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ، ثُمَّ قامَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، وقالَ: اللَّهُمَّ، مُنْزِلَ الكِتابِ، ومُجْرِيَ السَّحابِ، وهازِمَ الأحْزابِ، اهْزِمْهُمْ، وانْصُرْنا عليهم.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١٧٤٢ • [صحيح]

{أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ} إذًا فالجريمة التي وقعوا فيها أنهم فعلوا ماذا؟ أنهم قالوا على الله غير الحق.

- فقالوا أن قولهم على الله غير الحق شيئًا من اثنين: جمهور المفسرين قالوا الرشوة في الحكم، أنهم بدلوا حكم الشريعة بحكم يوافق هوى الناس.
- وقال بعضهم: هم كانوا يتبعون الأهواء وغير ذلك ولم يكونوا يغيرون الحكم بل كانوا يتركون الشريعة، والفعل الذي قالوا فيه على الله بغير الحق أنهم قالوا {سَيُغْفَرُ لَنَا}. فربنا يقول لهم أنه لم يخبرهم في الكتاب أنه سيغفر لهم بدون توبة نصوح.

فمن التقول على الله بغير علم، وأن تقول على الله بغير الحق: أن تدعي أن الله سيغفر وأنت مصر على كبيرة لا تتوب منها وتجزم أن الله سيغفر، فلا تعلق الأمر بالمشيئة، {ويقولون سيغفر لنا} الجزم بأن الله سيغفر هذا من التقول على الله بغير علم.

سبب قولهم على الله غير الحق

{أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ} حسنًا، هل يعقل أنهم قد نسوا الميثاق؟ لم يتذكروا التوراة؟ لم يتذكروا الحكم الشرعي حينما أبدلوه؟

فأحيانًا تجد رجلًا في فترة من فترات حياته الزمنية يفتي أن الربا حرام، وأن فوائد البنوك حرام، وأن الطلاق لا يشترط فيه أن يكون في المحاكم وأن الطلاق الشفوي يقع. تجده هكذا فترة من حياته ثم يغير الفتوى، هل نسي؟ أم أن المنصب غيره؟

فيقول ربنا سبحانه وتعالى: {وَدَرَسُوا مَا فِيهِ} **أي أنهم يتذكرون جيدًا ودرسوه ويعلمونه**.

لذلك **القضية أن العلم ليس وحده الذي يعصم**، العلم الذي يتحول إلى معلومات باهتة في قلبٍ ميت لا يخاف الله، هذا يكون وبالًا على صاحبه.

"وعالم بعلمه لم يعملن... معذب في قبره قبل عباد الوثن" وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أول ثلاثة تسعر بهم النار، عالم...)[٤] لكنه كان يعمل رياءً -والعياذ بالله.

فالقضية هنا {وَدَرَسُوا مَا فِيهِ}: أصبحت المعلومات باهتة في قلب ذلك الميت الذي لا يخاف من الله سبحانه وتعالى.

فيقول ربنا سبحانه وتعالى: {وَدَرَسُوا مَا فِيهِ} **حينما تتحول العقائد إلى أمور باهتة**، وهذا أمر خطير جدًا سيأتي معنا أيضًا -بإذن الله عز وجل- في ذلك الرجل الذي آتاه الله آياته ثم انسلخ منها، أن أحيانًا العقيدة تتحول إلى مجرد معلومات، وهذه خطورة الثقافة الباهتة أو ثقافة الذي يدعي صاحبها أنه محايد لا ينصر الحق ولا يهدم الباطل، **خطورة أنه يكون مجرد دارس لشيء لا يطبقه ولا ينفذه، خطورة انفصال العلم عن العمل** سيأتي معنا، وشبهه الله في قوله: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ}.

فكلمة {وَدَرَسُوا مَا فِيهِ} تأكيد أنهم فعلوا ذلك عن علم. لذلك اليهود مغضوب عليهم؛ عقابهم أشد، لماذا؟ لأنهم ضلوا على علم؛ يعلمون الحق ثم ضلوا عنه؛ فغضب الله عليهم، لكن النصارى ربنا سماهم ضالين، اليهود ضلوا عن علم، فهنا يقول ربنا سبحانه وتعالى: {وَدَرَسُوا مَا فِيهِ}.

إذًا الجيل الفاسد هو الذي لا يبذل المجهود في تعلم أحكام الشريعة، وإذا تعلم الشريعة تعامل معها تعاملًا باهتًا، لا يطبق هذه الأحكام.

الوصف الثاني للجيل الفاسد

الوصف الثاني للجيل الفاسد الذي جاء في سورة مريم هو: {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ}[مريم:٥٩].

---

٤ [عن أبي هريرة:] أنَّ اللَّهَ تبارَكَ وتعالى إذا كانَ يومُ القيامةِ ينزلُ إلى العبادِ ليقضيَ بينَهم وَكلُّ أمَّةٍ جاثيةٌ فأوَّلُ من يدعو بِهِ رجلٌ جمعَ القرآنَ ورجلٌ يقتتِلُ في سبيلِ اللَّهِ ورجلٌ كثيرُ المالِ فيقولُ اللَّهُ للقارئِ ألَم أعلِّمْكَ ما أنزلتُ على رسولي قالَ بلى يا ربِّ قالَ فماذا عملتَ فيما عُلِّمتَ قالَ كنتُ أقومُ بِهِ آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ فيقولُ اللَّهُ لَه كذَبتَ وتقولُ الملائِكةُ كذَبتَ ويقولُ لَه اللَّهُ بل أردتَ أن يقالَ فلانٌ قارئٌ فقد قيلَ ذلكَ ويؤتى بصاحبِ المالِ فيقولُ اللَّهُ ألَم أوسِّعْ عليكَ حتَّى لم أدعْكَ تحتاجُ إلى أحدٍ قالَ بلى يا ربِّ قالَ فماذا عمِلتَ فيما آتيتُكَ قالَ كنتُ أصلُ الرَّحمَ وأتصدَّقُ فيقولُ اللَّهُ لَه كذَبتَ وتقولُ الملائِكةُ لَه كذَبتَ ويقولُ اللَّهُ بل أردتَ أن يقالَ فلانٌ جَوادٌ وقد قيلَ ذلكَ ويُؤتى بالَّذي قُتلَ في سبيلِ اللَّهِ فيقولُ اللَّهُ لَه في ماذا قُتلتَ فيقولُ أُمِرتُ بالجِهادِ في سبيلِكَ فقاتلتُ حتَّى قُتلتُ فيقولُ اللَّهُ لَه كذبتَ وتقولُ لَه الملائِكةُ كذبتَ ويقولُ اللَّهُ بل أردتَ أن يقالَ فلانٌ جريءٌ فقد قيلَ ذلكَ ثمَّ ضربَ رسولُ اللَّهِ ﷺ على رُكبتي فقالَ يا أبا هريرةَ أولئِكَ الثَّلاثةُ أوَّلُ خلقِ اللَّهِ تُسعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يومَ القيامةِ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الترمذي ٢٣٨٢ • صحيح

إذًا تضييع الكتاب وتضييع الصلاة، هذه الأوصاف إذا تحققت في جيل فاعلم أنه جيل فاسد، لا تنتظر منه إصلاحًا.

ثم جاءت الآية التي تليها لتبين ما هي مواصفات الجيل الصالح الذي تنتظر منه الصلاح والإصلاح؟ {وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ} إذًا الجيل الذي تنتظر منه إصلاحًا هو الذي يتمسك بالكتاب ويقيم الصلاة.

العلم النافع الذي يقرب إلى الله

نُكمل الآية السابقة {أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ} فكلمة {وَدَرَسُوا مَا فِيهِ} أي العلم الباهت الذي لا يقع في قلب إنسان يخشى الله عز وجل، لذلك روي عن بعض السلف: "إنما العلم الخشية".

تكلمنا في إشكاليات البناء المعرفي أن {اقرأ} التي لا تؤدي إلى {وَاسجُد وَاقتَرِب ۩} فيها إشكالية.

{اقرأ} يجب أن تؤدي أنك تقترب من الله سبحانه وتعالى، المعرفة التي تزيدك عن الله بعدًا معرفة فيها إشكالية، وذلك هو الفارق ما بين الفلسفة والعقيدة. فالفلسفة أمر بارد باهت ذهني، أما العقيدة فأمر يستقر في القلب، أمر يجعل الإنسان يتحرك، يجعل دم المسلم حارًا، يبذل ويتحرك لنصرة دين الله عز وجل.

كلمتكم عن مقال "ديناميكية القرآن الكريم" وكيف أن النور لابد أن يتحرك {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ}[الأنعام:١٢٢] النور لابد أن يتحرك بين الناس، لكن أن تظل قضايا باهتة أشبه بمتون تُحفظ ولا يُطبق منها شيء، هذا أمر خطير جدًا أن تتحول العقيدة إلى هذا الأمر، {وَدَرَسُوا مَا فِيهِ}.

خفوت ذِكر الدار الآخرة

ثم يقول ربنا سبحانه وتعالى أن خفوت ذِكر الدار الآخرة في قلوبهم كان من أهم الأسباب التي جعلتهم يأخذون عرض هذا الأدنى: {وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ}.

هنا قالوا أن هناك إشارة أن ما فعلوه يضيّع عليهم الدار الآخرة، يضيّع عليهم نعيم الدار الآخرة، فاختاروا الدنيا وتركوا الدار الآخرة {وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} فهؤلاء لم يكونوا من المتقين، فاختاروا الدنيا على الآخرة -والعياذ بالله-.

لذلك خفوت ذكر الدار الآخرة في القلب يجعل الإنسان يرضى بالدنية في دينه، يرضى بالأدنى، يرضى بالعاجلة، وكلما تذكر الإنسان الدار الآخرة وعاش معها، تجده يختار الأقرب إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى، ويبتعد عن اختيارات هواه ونفسه وشهواته.

{وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعقِلونَ} وكأن من يختار الدنيا على الآخرة أو الذي يبدل شرع الله عز وجل إرضاءً لهوى نفسه أو لهوى الناس هو إنسان مجنون، إنسان غير عاقل، إنسان مشكوك في عقله، {أَفَلا تَعقِلونَ} قضية تقديم الدنيا على الآخرة قضية غير عقلية أصلاً، أن يختار إنسان أمرًا عارضًا زائلًا فانيًا حقيرًا على الأمر الباقي العظيم الجليل هذا أمر أصلاً مخالف للعقل {أَفَلا تَعقِلونَ}.

وهذا من أهمية الارتباط بالقرآن: أن الناس كلها تعظم أشياء، أما أنت حينما تعظم القرآن، تعظم أشياء أخرى، هذه الخطابات التي فيها تلقي لحقائق الوحي، نتلقى القرآن كحقائق: أن الدار الآخرة أعظم {وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعقِلونَ}.

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

ثم قال ربنا سبحانه وتعالى واصفًا الجيل الصالح -بعد أن أخبرنا بمواصفات الجيل الفاسد وأن أهم وصف في الجيل الفاسد ترك التمسك بالكتاب- وأهم وصف في الجيل الصالح التمسك بالكتاب، {وَالَّذِينَ يُمَسِّكونَ بِالكِتابِ}.

جماهير المفسرين وأهل اللغة قالوا أن يمسكون بمعنى يتمسكون، حقيقةً لم أجد أحدًا ذكر أن "يُمسِّك" بمعنى "يُمسِّك غيره"، كنت أعتقد أن كلمة "يُمسِّك" سأجد لها على الأقل كثرة يقولون أنها تعني أن يجعل غيره يتمسك، لكن غالب من قرأت لهم من المفسرين وأهل اللغة قالوا أن أمسك ومسَّك واستمسك وتمسك: كلها بمعنى واحد؛ أنه بذل مشقة وتكلّف وبذل لكي يمسك بالكتاب.

فقالوا {يُمَسِّكونَ} أي يبذلون مجهودًا ومشقة ليتمسكوا بالكتاب، وكأن هناك محاولة لنزع الكتاب منهم، كما قال ربنا سبحانه وتعالى في سورة الزخرف حتى لا يُفتن الإنسان بزخارف الدنيا: {فَاستَمسِك بِالَّذي أوحِيَ إِلَيكَ}[الزخرف:٤٣]، فكذلك قال ربنا سبحانه وتعالى: {وَالَّذينَ يُمَسِّكونَ بِالكِتابِ} أي يتمسكون بالكتاب بالرغم من كل هذه العوائق، وبالرغم من كل هذه الصوارف ،إلا أنهم يتمسكون بالكتاب.

التمسك بالكتاب العملي

{وَالَّذينَ يُمَسِّكونَ بِالكِتابِ} وهذا الكتاب أدّى إلى انطلاق في العبادة وإقامة الصلاة، أي أن **التمسك بالكتاب لم يكن مجرد تمسك نظري، بل كان عمليًا**. {وَأَقامُوا الصَّلاةَ} وأول مظهر من مظاهر التمسك بالكتاب: إقامة الصلاة.

كل قرب من القرآن لا يؤدي إلى زيادة في الإخبات والخشوع والصلاة هو قرب ذهني، قرب معرفي، وليس قربًا حقيقيًا، الاقتراب من القرآن حقيقةً يجعل الإنسان يريد أن ينطلق في إقامة الصلاة، أن يطيل في الصلاة، أن يقترب من مولاه {وَاسجُد وَاقتَرِب ۩} كما قلنا القراءة الحقيقية تؤدي إلى السجود والاقتراب.

{وَالَّذينَ يُمَسِّكونَ بِالكِتابِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ} **مجرد أن يتمسك الإنسان بالكتاب حقيقةً وأن يقيم الصلاة، يتحول – شاء أم أبى– إلى مصلح**. يتحول –شاء أم أبى– إلى مصلح وليس صالح فقط.

لم يقل ربنا سبحانه وتعالى: إنا لا نضيع أجر الصالحين. لا، بل قال: {إِنّا لا نُضيعُ أَجرَ المُصلِحينَ}.

التمسك الحقيقي بالقرآن وإقامة الصلاة تجعل الإنسان مصلحًا، الذي يدعي أنه متمسك ويقيم الصلاة ولا يعمل في الإصلاح تمسكه تمسكًا ناقصًا.

لذلك الصلاة في حد ذاتها إذا كانت صلاة حقيقية مؤثرة، تجعل المجتمع الفاسد يرفض هذه الصلاة، كما فعلوا مع أبي بكر الصديق؛ حينما ذهبت قريش وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم أن يمنع أبا بكر من الصلاة بصوت عال في فناء

داره، كان أبو بكر يصلي في فناء داره وكان رجلًا بكَّاءً أسيفًا، فكان يتقصف عليه، ويتقذف عليه نساء وأطفال المشركين ليسمعوا القرآن من أبي بكر[٥].

مجرد تلاوة القرآن تلاوة حقيقية من قلب خاشع، يخاف منها المشركون. {وَقالَ الَّذينَ كَفَروا لا تَسمَعوا لِهذَا القُرآنِ وَالغَوا فيهِ}[فصلت:٢٦] أي والغوا أثناء قراءته.

{أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾} [النجم:٥٩-٦١] يشغلون أنفسهم، قيل معنى سامدون أي يغنون، أو غير ذلك ليشغلوا أنفسهم حتى لا يتأثروا بالقرآن.

وقال قوم شعيب {قالوا يا شُعَيبُ أَصَلاتُكَ تَأمُرُكَ أَن نَترُكَ ما يَعبُدُ آباؤُنا..} [هود:٨٧] يعلمون أن المغيّر الأساسي في حياة شعيب وفي حياة من معه هي الصلاة، فشعروا أن وجود الصلاة كان مؤثرًا وكان له تأثيرًا في حياة شعيب.{وَالَّذينَ يُمَسِّكونَ بِالكِتابِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ إِنّا لا نُضيعُ أَجرَ المُصلِحينَ}

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

ثم قال ربنا سبحانه وتعالى مُذكِّرا لهم بالميثاق الأول، وهنا نجد ثلاثة مواثيق متتالية في هذه السورة. لذلك بعض العلماء كما ذكرنا في أول درس سمَّوا سورة الأعراف بسورة الميثاق، وفي المنتصف كما قلنا أنه من الآيات المحوريّة في سورة الأعراف {وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ}؛ نقض العهود والسقوط في المعصية؛ منهم من نقض العهد وتاب هذا كتصور عام لإحدى مواضيع سورة الأعراف.

فنجد ثلاثة مواثيق:

- ميثاق الذي في الكتاب {ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب}.
- ثم الميثاق الأصلي الذي تلقّوا به التوراة، حينما رفضوا أن يتلقوا التوراة.
- ثم الميثاق الأصلي الأول الفطرة أو الإشهاد كما سنتحدث.

[٥] للحديث كامل انظر الملحق في النهاية

الميثاق الأصلي الذي تلقّوا به التوراة

{وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ} وهذا علاقة استمرار أو علاقة الثلاث آيات ببعضها البعض، لأن سورة الأعراف كما ذكرنا أن من الفوارق بين قصة بني إسرائيل في الأعراف وقصة بني إسرائيل في سورة البقرة ماذا؟

أن هناك ما هو أشبه بترتيب تاريخي في سورة الأعراف؛ نتق الجبل هذا لم يأت في هذه المرحلة؛ لأننا في مرحلة أن سيدنا موسى مات، وجاء بعده يوشع بن نون وجاء قومه الذين اعتدوا في السبت، كل هؤلاء جاءوا بعد سيدنا موسى، فهنا لماذا جاء "نتقنا الجبل" وهذا في لحظة عندما سيدنا موسى رجع بالتوارة بعد ميقات ربه سبحانه وتعالى، ثم عاد إلى بني إسرائيل فرفضوا أن يأخذوا التوارة، قالوا لا أخبرنا أولًا بما في التوارة، أرنا الأحكام إذا أعجبتنا أخذناها، وإذا لم تعجبنا لن نأخذها.

كان هناك معنى تكلمت عنه –لا أتذكر في سورة يس كما أذكر– {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ} [الحج:١١]، هذه في سورة الحج ولكن هناك من يعبد الله على شرط؛ أي هناك شخص يشترط على ربنا أولًا؛ أربني الدين هل يناسبني أم لا؟ يشترط على الله {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ} [التوبة:٤٢]، أي أمر غير مناسب لي لا لا يلزمني؛ يجب أن يكون الأمر مناسبًا لي، لو لم يناسبني لن أمشي فيه.

فلما ذهب –الآثار المروّية– فلما ذهب سيدنا موسى بالتوراة، قالوا له لا اعرض علينا التوراة أولًا، نشاهد، نأخذ فكرة، نرى إذا أعجبنا الأمر حسنًا، وإن لم يعجبنا لا نريده، فعاقبهم الله عز وجل وعنّفهم، ورفع فوقهم الجبل، وهُددوا إن لم يأخذوا التوراة يسقط الجبل عليهم.

بني إسرائيل للأسف اعتادوا على الذل، اعتادوا ألا يكون لهم كرامة؛ حتى الجهاد لما طُلب منهم، وكان أمرًا أختياريًا أن يذهبوا إلى الجهاد ورفضوا الجهاد، وقالوا {إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}[المائدة:٢٤]، فلما رفضوا التوارة –والأمر لم يكن عبثًا ولعبًا– فرُفع الجبل فوقهم... هذه الشخصية غالبًا تستمر في المراوغة؛ حتى ولو يرفع الجبل ويقول تبت وسآخذ التوراة بقوة وعزيمة، عندما ينتهي الأمر ولاينزل الجبل على رؤوسهم يعودوا مرة أخرى لسابق عهدهم.

لذلك هناك نفسية مهما عُوقبت ومهما هُددت تراوغ –والعياذ بالله– ليس لديهم كرامة، اعتادوا على المذلة والمراوغة.

{وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ} هذا الميثاق للحظة إيتاء التوارة، {وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِم}، بمجرد أن أحسوا أن الجبل سيقع عليهم وخافوا، وقال لهم ربهم خذوا ما آتيناكم بقوة، القوة أي العزيمة، حتى صاحب الظلال يفرق ما بين التشدد والقوة، والتعنت والقوة، والقوة عكس التميع.

أن يكون الإنسان متميعًا في الدين، لا يبالي بشريعة الله... لا، هناك قوة {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ}، **والذي يساعد على أن تأخذ الدين بقوة كثرة ذكر ما في هذا الدين من معاني**؛ {وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ} بعضهم ربط ما علاقة هذا الأخذ بالقوة و{واذكروا ما فيه} -كما جاءت في س.البقرة أيضًا- قال أنك حتى تأخذ الدين بقوة، تحتاج كل فترة إلى أن تتذكر ما في هذا الدين، لا تجلس فترة بعيدًا عنه، فتصبح مجرد -كما قلنا- أشياء محفوظة باهتة في قلبك...فدائمًا تحتاج أن تعرض قلبك على القرآن، وتعرض القرآن على قلبك، فتظل متذكرًا هذه المعاني الحية التي أيقظت هذا الجيل من الصحابة، وجعلتهم يغيرون العالم، كثرة تكرار هذه المعاني على قلبك يجعلك تأخذ هذا الدين بقوة، أما نسيان هذه المعاني يجعل القلب يأفل ويغيب، ويجعل القلب في حالة من الموات والبرود {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾

فلما ذكّرهم بالميثاق الذي أخذوا فيه التوارة، ذكّرهم بالميثاق الأول {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ} تُقرأ بالوقف على"بلى"، ونبدأ {شهدنا أن ...}...وتقرأ بالوقف على "شهدنا" ونبدأ{أن تقولوا...} وسنذكر اختلاف المعنى في كلتا الحالتين.

{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ...}، هذه الآية مما اختلف فيها المفسرون، قال جمع من المفسرين -أهل الأثر كثير من المتقدمين كالطبري وغيره، وكثير من المفسرين المتقدمين والبغوي وغيره- أن

هذه الآية هي التي أخبر عنها أو رُوى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (أن الله عز وجل مسح على ظهر آدم فأخرج كل الذرية من ظهره)[٦]، انتبهوا معي.

هناك اختياران في الآية:

- اختيار أن المقصود بهذه الآية هي لحظة الإشهاد الحقيقي؛ أن الله عز وجل سأل الناس حقيقة في عالم الذر بعد أن مسح على ظهر آدم، وقال لكل الناس –ونحن في عالم الذر– قال لهم ألست بربكم فقلنا جميعًا بلى، لكننا لا نذكر هذا، لكن بقايا ما نشعر به من فطرة هذا هو تأثير لهذا الإشهاد.
- وبعضهم قال هذه الآية هذا الحدث لم يحدث...

إذاً ما موضوع {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ}؟ قالوا هذه هي الفطرة؛ وهذا تعبير مجازي، قالوا هذه الفطرة.

الجمهور جماهير المفسرين اختاروا القول الأول، القول الثاني بعض أهل العلم قالوا أن هذا قول مبتدع؛ قول المبتدعة والمعتزلة !،لكن حقيقة هذا اختيار الإمام ابن كثير ومن قبله شيخ الإسلام ابن تيمية ذكره في تعارض العقل والنقل.

إذًا سنذكر القولين لأن القولين معتبران، وهناك أصلاً بينهما تلازم.

فالقول الأول الذي اختاره جماهير المفسرين، قالوا هناك آثار عندنا أثر في موطأ الإمام مالك عن سيدنا عمر بن الخطاب، وأثر في الترمذي عن أبي هريرة: أن الله عز وجل مسح على ظهر آدم فأخرج كل الذرية التي في ظهره،وأيضا أثر عن ابن عباس، هؤلاء هم الثلاثة الذين رووا الأثر الذي صُحّح –

وهذا الذي مال إليه ابن كثير وأخذه من شيخ الإسلام ابن تيمية– قال أن أثر سيدنا عمر أن الله عز وجل مسح وأخذ الذرية لم يشهدهم، بل مسح على ظهر آدم فأخرج الذرية وقال هؤلاء للجنة قسم في الجنة، وقسم في النار، وهنا القدر مكتوب، قال فيما العمل فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما حدث وكلٌ ميسّر لما خلق له، وأن علم الله عز وجل كاشف لما سيحدث، وهو الذي خلق ذلك، والإنسان أعطاه الله القدرة على الاختيار.

---

٦ [عن أبي هريرة:] لما خلق اللهُ آدمَ، مسح ظهرَه، فسقط من ظهرِه كلُّ نَسَمةٍ هو خالقُها من ذُرِّيَّتِه إلى يومِ القيامةِ، وجعل بين عَيْنَيْ كلِّ إنسانٍ منهم وَبِيصًا من نورٍ، ثم عرضهم على آدمَ، فقال: أَيْ رَبِّ ! مَن هؤلاءِ؟ قال: هؤلاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فرأى رجلًا منهم، فأعجبه وَبِيصُ ما بينَ عَيْنَيْه، فقال: أَيْ رَبِّ ! مَن هذا؟ فقال: هذا رجلٌ من آخرِ الأممِ من ذُرِّيَّتِكَ - يُقالُ له: داوُدُ - فقال: رَبِّ ! كم جَعَلْتَ عُمُرَه؟ قال: سِتِّينَ سنةً، قال: أَيْ رَبِّ ! زِدْهُ من عُمُرِي أربعينَ سنةً، فلما قُضِيَ عُمُرُ آدمَ، جاءه مَلَكُ الموتِ، فقال: أَوَلَمْ يَبْقَ من عُمُرِي أربَعونَ سنةً؟ قال: أَوَلَمْ تُعْطِها ابنَك داودَ؟ ! قال: فجَحَد آدمُ، فجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُه، ونَسِيَ آدمُ، فنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُه، وخَطِئَ آدمُ، فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُه

الترمذي (ت ٢٧٩)، سنن الترمذي ٣٠٧٦ • حسن صحيح

وهنا لذلك تجد للأسف فرَق دخلت وضلّت في القدر وملخّص قضية القدر أن القدر سر الله وقدرة الله. ببساطة كما ذكرت، كيف أن ربنا يسمعنا الآن، ويسمع الناس في أمريكا وفي أستراليا في نفس الوقت، نحن لا نقول كيف؟ كيف أن الله كان يعلم أن فلان سيضل؟ وخلق له القدرة على الضلال، وفي نفس الوقت هذا الشخص كان لديه الاختيار هذا وذاك، لا يصح أن تقول هنا "كيف"، وكذلك لا يصح هنا أن تقول "كيف"، نؤمن بهذه الصفة دون تكييف أو تعطيل أو تشبيه، إذًا هذا ملّخص الكلام في قضية القدر.

فقالوا أن هذا الحديث يتكلم على القدر، لا يتكلم على الإشهاد، والحديث الذي يتكلم على الإشهاد لسيدنا ابن عباس[٧] الذي فيه نص صريح أن هذا كان بنعمان عند عرفة، وأن الله أخرج كل الذرية، وأشهدهم وقال "ألست بربكم"، فقالت كل الذرية في عالم الذر "نعم"، ألست بربكم قالوا بلى، وأن هذا حدث حقيقة، قالوا هذا أثر موقوف عن ابن عباس، بالرغم أن ابن عباس رفعه لكن قالوا أن الرفع ضعيف، وأن هناك علة في الراوي، أي في السند ضعف، الأثر هذا موقوف. موقوف أي ليس موصولًا للنبي صلى الله عليه وسلم، توقف عند الصحابي، هذا رأي الصحابي، حسنًا والصحابي تلقاه مِمَن؟ قالوا لا نعرف، يمكن أن يكون تلقاه من أهل الكتاب، قد يكون لم يخبرنا بذلك. بعضهم قال لا حتى ولو كان موقوفًا على الصحابي وهذا تعليق الشيخ أحمد شاكر على ابن كثير؛ قال هذا مما لا يؤخذ بالرأي.

الشاهد أن القولين معتبران، القولان معتبران.. القول الذي قال أنه حدث إشهاد حقيقي، القول الثاني قال لا، القول الذي قال أن الإشهاد حدث حقيقة، دعونا نقرأ معه الآيات {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ} سألهم.

- الطبري قال أشهدهم على أنفسهم أي أشهد بعضهم على بعض، جعل أهل الإيمان يشهدون على أهل الكفر،
- الباقون قالوا لا، أشهدهم على أنفسهم أي أشهد كل أحد على نفسه، الإقرار بالتوحيد. الإشهاد هنا بمعنى الإقرار. أشهده على نفسه، أي يقر بالربوبية والتوحيد {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ} فلما قالوا بلى قالت الملائكة شهدنا، شهدنا عليكم أنكم أقررتم على أنفسكم، {أن تقولوا يوم القيامة} حتى لا تقولوا أي لئلا تقولوا، {أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين}.

وسنتكلم الآن ما الفرق بين غافلين وبين الآية التي بعدها، {إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ} انتبهوا معي.

٧ [عن عبدالله بن عباس:] إنَّ اللهَ أخذَ الميثاقَ مِن ظهرِ آدمَ بِ (نعمانَ) يومَ عرفةَ، وأخرجَ من صُلبِه كلَّ ذريةٍ ذراها فنثرَهم بينَ يديهِ كالذَّرِّ، ثمَّ كلَّمَهُم قَبلًا قال: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ١٧٠١ • صحيح

الإشكالات في القولين: أنه الإشهاد أو أنه القدر

هؤلاء الذين قالوا أن الإشهاد هذا حدث حقيقة، هل يمكن أن يستخرج أحد إشكالية في سياق الآية بالنسبة للذين قالوا أن الإشهاد هذا حدث حقيقة وأن ربنا مسح على ظهر آدم، فأخرج من ظهر آدم كل ذريته؟ حسنًا، الذي اختار هذا القول، ما الإشكالية التي ستقابله في الآية؟

الإشكالية في: "من ظهورهم" {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ} لم يقل من ظهره، وهذا الذي دفع إلى الأخذ بالرأي الثاني سواء من المتقدمين أو المتأخرين، ولذلك اختاره ابن كثير، قال هنا أن ربنا قال {من ظهورهم} لم يقل من ظهره، فليس المقصد أن هذا حدث في لحظة واحدة، وكل عالم الذر خرج مرة واحدة من ظهر آدم -عليه السلام-، هو لا ينكر أن هذا يمكن أن يحدث -انتبه- هو لا يعمل العقل، لا **هو يقول أن هذا يمكن أن يكون قد حدث لكن في القدر وليس في الإشهاد**، إنما كلمة من ظهورهم بمعنى التناسل الطبيعي الذي يحدث، وأن كل مولود يولد يولد على الفطرة، هذا الحديث هو تفسير هذه الآية، أن كل مولود يولد على الفطرة[٨].

هذه هي الإشكالية التي قابلتهم، فقالوا لا، وأن آدم ممكن أن يخاطب بالجمع، وحاولوا أن يحلوا هذه الإشكالية.

والإشكالية التي ستقابل من يختار أن هذه الفطرة، أنه كيف سيرد على كلمة {وأشهدهم} ف{قالوا بلى}؟ فكلمة {قالوا بلى} هذه تحتاج أن يردوا عليها، شيخ الإسلام ابن تيمية وابن كثير الذين اختاروا أنها الفطرة، ومن المتأخرين أيضًا ابن عاشور، كيف سيردون عليهم؟

قالوا أن القول لا يشترط أن يكون باللسان، يمكن أن يكون بالحال {وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ}[إبراهيم:٣٤] أنت لم تطلب من ربنا أن يعطيك عينين ويدين، لكن احتياجك وحالك تحتاج إلى عين وتحتاج إلى يد وتحتاج إلى قدم، فقالوا أن القول لا يشترط أن يكون باللسان، بل قد يكون بالحال.

أنا أريد أن أعرفك كيف أن عقول الأئمة فيها ابتكار وإبداع وسعة؛ لكي لا تتعجل بالإنكار، فلا تفترض أنهم لم ينتبهوا لكذا، لا، بل انتبهوا إليها وردوا عليها، أنت يمكن أن ترفض الرد، لا توجد مشكلة، لا يوجد مشكلة أن تختار -على علم-، تختار رأيًا وتنكر الآخر وترد، ليست مشكلة، لكن لا تفترض أن هذه الآية لم يكن عرفها نهائيًا، لا هو

٨ [عن أبي هريرة:] كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ على الفِطْرَةِ، فأبَواهُ يُهَوِّدانِهِ، أوْ يُنَصِّرانِهِ، أوْ يُمَجِّسانِهِ، كَمَثَلِ البَهِيمَةِ تُنْتَجُ البَهِيمَةَ هلْ تَرى فِيها جَدْعاءَ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ١٣٨٥ • [صحيح] • أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨)

يعرفها ورد عليها، أنت ممكن أن ترفض الرد، هل اتضحت الفكرة؟ كي يكون هناك اتزان في التعامل مع أقوال أهل العلم.

بداخل الإنسان فطرة البحث عن الوجود

{قالوا بلى شهدنا} حسنًا، لكن بعيدًا عن الخلاف، المفاد كله واحد: **أن داخل كل إنسان سواء الفطرة أو الإشهاد، هذا حدث حقيقيًا وأنه من لوازم الإشهاد الفطرة** {أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين}، نحن لا نتذكر، لا نتذكر هذا، فقالوا أن الله جعل بداخل الإنسان فطرة البحث عن الوجود، عن الخلق، ما الذي جعل الناس حتى الذين على باطل مثل الفراعنة يضعون مع الميت متاعه وطعامه وشرابه؛ لكي يكون معه عندما يُبعث ويذهب للحياة الثانية، فيكون معه طعامه وشرابه وأغراضه، فلا يحتاج لأحد هناك، لا أحد يعرف كيف سيكون المكان هناك؟ الذي جعلهم يفعلون هذا أن الإنسان مفطور، ولماذا لا يوجد ذلك في الحيوانات؟

وهذه الفكرة كان استعملها بيجوفيتش في الإسلام بين الشرق والغرب، قضية الدين المتأصل داخل الإنسان وتفكيره في الحياة الأخرى، لماذا لا تفعل الحيوانات هذا؟ لو أننا متطورون من حيوانات؟ لماذا نفكر بهذه الطريقة؟ عندنا قضية نفكر فيها، قضية الوجود... الأسئلة التي بداخلنا؟ لماذا شغل الفلاسفة أنفسهم بالإله، لو الموضوع لا يحتاج أن نفكر؟

حتى كلمة الإلحاد، ألحد أي معرض عن الموجود، ويرفض الوجود، هذا دليل على وجود الله، لأن معنى أنك ترفض فكرة، هذه الفكرة لو أنها غير موجودة أصلًا، فلا تحتاج أن تنكرها هذا دليل على وجودها، دليل أن هذه الفكرة موجودة، مفطورة في الإنسان، لو أنها غير موجودة فلن ننشغل بها أصلًا، ولا نتساءل عنها ولن يحدث كل هذا الاهتمام بها، لكن هذه الأسئلة وأنه حتى الملحد مشغول بإجابة كيف أتينا؟ ويظل يبحث عن إجابة ويقول إن العلم سيكتشف، لكن لماذا هو مشغول بهذه الأسئلة أصلًا؟ فلو أن هذا الموضوع غير مهم، فلماذا يشغلك؟ فهذه الفطرة التي بداخل الإنسان تمنعه من أن يتبع الشرك أو أن يلحد، وأن يسأل عليها، هذه الفطرة، الإحساس الذي بداخله أن كل الموجودات لابد لها من مُوجد، وأن الخلق لابد له من خالق، وأنه لم يأتي هنا عبثًا، هذا الإحساس الذي يأتيه كل فترة ينغص عليه.

معذرةً هذه الأيام توجد إشكالات عقائدية لكن من المهم أن نُجيب عليها كي نتكلم فيها، **هل هذا الإحساس كافٍ لأن يُحاسب عليه الإنسان حتى لو لم يأت إليه رسول؟** أي لو أن شخصًا لم يأت له رسول هل سيُحاسب على هذه الفطرة فقط؟ قالوا لا، بالطبع يوجد خلاف بين الفرق الثلاث المعتزلة والأشاعرة واختيار مجموعة من أهل السنة.

- وبالطبع أكثر مَن أصّل لهذا الموضوع هو شيخ الإسلام ابن تيمية، قال لا، هو يستحق الذم والعقاب لكن الله لا يعاقبه حتى يأتي رسول {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء:١٥]،
- المعتزلة يقولون أنه نعم يجب عليه أن يصل إليه بالعقل حتى لو لم يأت رسول، فيُوجب عليه أن يصل لربنا بالعقل،

لكننا لا نقول بهذا، هو لا يحاسب طالما أنه لم يأت إليه رسول، لكن الإنكار التام والإعراض، هو سيُحاسب على الإعراض.

وهنا إشكالية لن ندخل فيها، وهي قضية ما هي الموانع؟ أن نقول أن فلانًا فعلًا كان عنده موانع من الإسلام، لكن الشاهد عندنا في الآية أن الله عز وجل جعل بداخل كل إنسان شعورًا وإحساسًا لا يستطيع أن يفر منه، هذا الشعور يأتيه كل لحظة –الفينة بعد الأخرى– يأتيه من آن لآخر، الذي سماه النبي صلى الله عليه وسلم واعظ الله[٩]، نحن نسميه الضمير أو الإحساس الذي بداخله، الذي يجعله أحيانًا عندما يفعل الخطأ يشعر بالندم والألم {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾}[القيامة:١-٢]، من علامات يوم القيامة أن هناك نفسًا اسمها اللوامة، ولماذا يلوم الإنسان نفسه لو أنه خلق عبثًا؟ لذلك في آخر سورة القيامة {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى}[القيامة:٣٦] لو أن الإنسان جاء هنا سُدى وجاء عبثًا، لماذا يوجد شيء اسمه الخطأ؟ لماذا هناك لوم وهناك عتاب؟

لو أن الحياة كلها عبث إذًا لن يوجد شيء اسمه الخطأ، لأن الاثنين صواب، الحياة عبث، معنى أن هناك شيء اسمه خطأ وأن هناك شيء اسمه لوم وهناك شيء اسمه عتاب، فهذا دليل على أن هناك قيامة وأن هناك إله، فهذا الواعظ ،هذه الفطرة، هذا الضمير الذي بداخل الإنسان الآن يُحارب، وأن الإلحاد ليس حربًا ضد الإسلام فقط، هذه حرب ضد الفطرة وصراع مع الفطرة وصراع مع ضمير الإنسان وصراع مع الإنسان نفسه.

كما قلنا، كما قال المسيري قال الآن هذا ضد الإنسان و مثلما قال الطريفي هذا صراع مع الفطرة، وغيرهم وغيرهم، كل من تتبع الآن ظواهر الحضارة الغربية المادية يجد أنها ضد الإنسان نفسه، ضد الفطرة، محاولة قتل هذه البقايا وهذه الفطرة لتلويثها تمامًا وعدم الوقوف مع النفس لتذكر هذه اللحظة –أسأل الله عز وجل أن يميتنا على الفطرة.

٩ [عن النواس بن سمعان الأنصاري:] ضربَ اللهُ تعالى مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلى جنْبَتَيِ الصراطِ سوران، فيهما أبوابٌ مُفَتَّحَةٌ، وعلى الأبوابِ ستورٌ مُرْخاةٌ، وعلى بابِ الصراطِ داعٍ يقولُ: يا أيُّها الناسُ ! ادخلوا الصراطَ جميعًا ولا تَتَعَوَّجوا، وداعٍ يدعُو مِنْ فَوْقِ الصراطِ، فإذا أرادَ الإنسانُ أنْ يفتحَ شيئًا مِنْ تِلْكَ الأبْوابِ قال: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ، فإنَّكَ إنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، فالصراطُ الإسلامُ، والسُّورانِ حدودُ اللهِ، والأبوابُ الْمُفَتَّحَةُ محارِمُ اللهِ تعالى، وذلِكَ الدّاعِي على رأسِ الصراطِ كتابُ اللهِ، والداعي مِنْ فوقٍ واعظُ اللهِ في قلْبِ كُلِّ مسلمٍ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٣٨٨٧ • صحيح • أخرجه الترمذي (٢٨٥٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٣٣)، وأحمد (١٧٦٣٤)

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد صلى الله عليه وسلم، كنا نتكلم في قضية الفطرة المستقرة داخل الإنسان التي تجعله يقف مع نفسه ويقول {ربنا ما خلقت هذا باطلًا}، أن يتوقف ليقول لا يعقل أن يكون كل هذا الكون عبث باطل {أيحسب الإنسان أن يُترك سدى}، أي يظن أنه لا يؤمر ولا يُنهى، {بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ}[القيامة:٥] أي لا يحب أن يسمع الأمر والنهي، يريد أن يعيش حياة العبث، لكن في كل تفاصيل جسده وتفاصيل الكون، آيات تجعله يتوقف مع نفسه يسأل كيف حدث هذا؟

من المرويات أن مجموعة جاءوا ليناظروا، لا أدري مدى ثبوتها عن أبي حنيفة –رحمه الله– أنهم جاءوا وقالوا له نريد أن نناظرك في وجود ربنا، فقال لهم أنا مشغول الآن بقضية عجيبة، دعوني، فقالوا له ما الأمر؟ قال لهم يقولون أن هناك سفينة من خشب تجمع مع بعضه وأصبح سفينة وتحرك ومشى وجاء من الهند إلى هنا، أنا مشغول، قالوا له لا لا يمكن! قال لهم كيف لا يمكن وأنتم تقولون أن الكون كله جاء بالصدفة، فأمرٌ عادي أن السفينة تأتي بالصدفة، فأقام عليهم الحجة.

مثل هذه الردود البسيطة،التي قد يظنها البعض بسيطة، هذه هي الإشكاليات التي لا يستطيعون أن يردوا عليها حتى الآن، وأنه في كل أو قل أغلب المناظرات يتوقفون عند قضية من؟ هم!يحاولون قدر المستطاع أن يجيبوا، قالوا هذا القانون، من الذي وضع القانون؟ لدرجة أنه في النهاية عندما يُضيق عليه مثل دوكينز وما هو مشهور عنه وغيره، يقول أنه من الممكن أن يكون مخلوقات فضائية عالية الذكاء هي التي فعلت هذا، ويظن أنه يحل الإشكال، ومن الذي أتى بهذه المخلوقات الفضائية؟ لو افترضنا جدلًا أنه صواب، فمن جاء بهذه المخلوقات الفضائية عالية الذكاء؟ لدرجة أنه في مرة –وهذا مضحك– سُئل دوكينز سؤالًا قالوا له لو افترضنا أن العلم توصل كما تقول أنه سيأتي يوم والعلم سيكتشف هذه المخلوقات الفضائية أو هذا الشيء أيًا كان ما تريد أن تسميه، هذا الشئ العالي الذكاء لو اكتشفناه أنت متصور كيف يكون وصفه؟ قال له وصف تتقاصر الألسنة عن وصفه، أي يريد أن يقول كل الذي يقولونه عن الإله، هذا لن يكون شيئًا في الوصف الحقيقي لهذا الشخص، يريد أن يخبرك أنه يتقاصر عنه المدح ولا نحصي ثناءً عليه، هل تتخيل؟!

انظر إلى الإنسان! هو يراوغ؛ لذلك من الأزمات النفسية التي يمر بها الملحدون أنهم يحتاجون إلى عناية روحية؛ فبدأوا يقولون ننشئ كنيسة للملحدين، هم ينكرون الدين ولكن يقولون أن هذا لأجل الروح، وليس له علاقة بإذا كان الدين حق أم لا! حتى ذكرها أخونا حسام الدين حامد في كتابه "الإلحاد وثوقية التوهم وخواء العدم" أنه يمكن أن يسمع مثلًا ابتهالات، شيء يلطف به عن روحه، يقول لا هذا مثل الأغاني التي نسمعها، شيء لتهدئة النفس.

فالذي ينكر ويصادم هذه الفطرة يقع في إشكالية عظيمة، لكن هناك فطر –نعوذ بالله من ذلك–تدنست وانتكست.

فهذه الفطرة التي وضعها الله عز وجل. لذلك قالوا أن دور الرسل سمَّاهم "مذكِّرين" لذلك بعضهم قال أن التذكير هنا أي تذكير بهذا الميثاق أو تذكير بهذه الفطرة، سواء الذي اختار هذا القول أو الذي اختار هذا القول، قال: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}[الغاشية:٢١] أي مذكِّر لهذه الفطرة، فدورنا مسح الركام الذي تكوَّن على الفطرة؛ لذلك أنت الأقوى؛ لأنك الذي تحاول أن تصل للأصل، هو يحاول أن يضع ركامًا، أي لو أننا نتصارع على شخص، هذا يريد أن يدخله النار وأنت داعية تريد أن تدخله الجنة، أنت الأقوى؛ لذلك يعجبني جدًا -جزاه الله خيرًا ورحمه الله- كتاب "الفِطريَّة" للدكتور فريد الأنصاري، قضية أنت الأقوى، البحث عن مخاطبة الفطرة التي بداخل الناس.

لذلك هذا الركام قد يسقط بآية كما حدث مع السحرة، كل الركام وكل الفساد الذي كانوا فيه، وكل المال الذي كانوا يريدونه، كل هذا بمجرَّد أن رأوا آية واحدة سقط! فأنت يمكن أن تُلقي العصا وتقرأ آية على الناس فتقوم بفضّ كل هذا الركام.

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾

{أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ}؛ هم يعتذرون بشيء من اثنين:

- غفلة؛ أنا لم أكن أعرف، لم أنتبه، فربنا يقول له: لا، كان هناك فطرة كل فترة تذكِّرك.
- أو الجهل؛ أنا خُدعت، أنا جئت ووجدت المجتمع هكذا فسرت خلفه.

فيقول: لا، أنا أرسلت رسلًا، والفطرة التي كانت بداخلك تجعلك تسأل، لو أنت مت وأنت تبحث ولم تصل {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}[النساء:١٠٠]، زيد بن عمرو بن نفيل مات قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يُسند ظهره إلى الكعبة ويقول: يا رب لو أعلم أي الوجوه أحبُّ إليك لعبدتُكَ بها، هو يبحث ومات على الحنيفيَّة، فقال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: (يُبعث أمة وحده)[١٠]، فالقضية أن الإنسان يكون صادقًا في البحث.

١٠ [عن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم:] أنَّ زيدَ بنَ عمرِو بنِ نفيلٍ ماتَ ثمَّ أنزلَ على النَّبيِّ ﷺ: فقالَ النَّبيُّ ﷺ: إنَّهُ يبعثُ يومَ القيامةِ أمَّةً وحدَهُ

الذهبي (ت ٧٤٨)، تاريخ الإسلام ٨٨/١ • إسناده حسن

{أن تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم} نحن قلدناهم وكان ما كان {أفتهلكنا بما فعل المبطلون}.

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

{وكذلك نفصل الآيات} كما فصلنا لكم قضية الفطرة أو الإشهاد، فصلنا لكم أيضًا في هذه الآيات {ولعلهم يرجعون}.

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾

ثم ذكر الله عز وجل لنا نموذجًا: {وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَآتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ} هذا نموذج، ربنا قال لنا قبل قليل -نحن قلنا أن هناك ثلاث مواثيق-: {أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ}، {نَتَقْنَا الْجَبَلَ}، ميثاق الفطرة أو الإشهاد، ثلاث مواثيق متتالية.

ثم نموذج لشخص كان يعلم الصواب، كما قال ربنا: {وَدَرَسُوا مَا فِيهِ}، نموذج لشخص اختار الدنيا كما قال ربنا قال: {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى}، نموذج لشخص لا يشبع: {وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ}، {إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ}.

مرة ثانية؛ ذكر هذا النموذج، نموذج تطبيقي عملي للفساد الذي وضَّحته الآية: {وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ}:

- أنه كان على علم، كان يعلم {ءَآتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا}، كما قال ربنا: {وَدَرَسُوا مَا فِيهِ}،
- أنه اختار الدنيا {أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ}، مقابل {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى} أي لم يشبع من الدنيا،
- {إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ} كما قال في السابقة: {وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ}،

هل المقارنة واضحة؟

حسنًا {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا} آية مرعبة! عندما تسمع {ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا} أنت تتوقَّع: {ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا} "فكان من الطائعين"، "فكان من العابدين"، "فكان من المجاهدين"، "فكان من القانتين" فتُفاجأ أنه بعد ما أُوتِيَ الآيات انسلخ! هو الذي أخذ القرار، الإيتاء كان من الله، والانسلاخ كان منه –والعياذ بالله– فلم يشكر النعمة، عرَّفه النعمة وأعطاه النعمة فأعرض عنها، مع سبق الإصرار والترصد، {فَانْسَلَخَ} هو الذي أخذ القرار!

{فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ} من المقصود بهذه الآية؟ اختلفوا على ثلاثة أقوال، أشهرهم قولان:

- بلعام بن باعوراء عابد بني إسرائيل، وأنه من علماء بني إسرائيل.
- أو أميَّة بن أبي الصَّلْت الثَّقفيّ من قبيلة ثقيف في الطائف، وأنه كان على الحنيفية وكان يتعبَّد قبل بعثة النبي ﷺ، وهذا الأثر مرويّ عن عبد الله بن عمرو بن العاص، هذا اختيار عبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله عنهما– قال أن هذا كان أمية بن أبي الصَّلْت وأنه كان له شعر، له بقايا شعر محفوظة، مروي أثر ضعيف: (كاد شِعر أمية أن يُسلم) لكن هذا الأثر ضعيف، الشاهد أنه كان يتعبَّد ينتظر لحظة، يعرف أن هذا زمان البعثة وكان ينتظر أن يُبعث، فلما بُعث النبي ﷺ حسده ورفض ذلك.

  وهذا القول ليس هو قول الأكثرين، وإن كان قد مال له ابن عاشور، وابن كثير أثبت أنه مروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص بسند صحيح.

  هذا القول يتشابه –نحن الآن في ختام السورة– مع أول السورة حسد إبليس لآدم، هنا أيضًا حسد أميَّة للنبي ﷺ ، أيضًا كان يعبُد على شرط، أعبد لكن أصبح أنا النبي، لكن أكون تابعًا... لا!، هناك شخص يشترط.

أو القول الثاني: أنه عالم بني إسرائيل الذي أخذ الرشوة وأخذ المال، فوقف في مجابهة موسى –عليه السلام– أيًا كانت الطريقة التي وقف بها ضد سيدنا موسى أو ضد قوم موسى، لكن المهم أنه رضي بالمال ورضي بالدنيا ورضي بالهدية، وحارب الصالحين، فهذه تكون متشابهة مع آية: {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى}.

إذًا لو اخترنا أميَّة بن أبي الصَّلْت الثَّقفيّ ستكون متشابهة مع قصة إبليس في البداية، هذا حسد النبي ﷺ كما حسد إبليسُ آدمَ،و لو اخترنا أنه عالم بني إسرائيل ستكون أشبه بـ {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى}.

وترك الآية بدون تحديد لتصلح لكل من وقع في هذا الفعل –والعياذ بالله– لذلك قال مجاهد –رضي الله عنه–: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ} قال: "**هذه في كل من يقرأ القرآن ولا يعمل به**" –والعياذ بالله–، كلُّ قارئ للقرآن لا يعمل به له

نصيب من هذا التشبيه، حتى إذا أعرض تمامًا ورفض القرآن تمامًا، ناله هذا التشبيه كاملًا -والعياذ بالله- هذا في رأي الإمام مجاهد.

الفرق بين من لا يعمل بالقرآن ومن يبدل في القرآن

ونذكر الآن الفارق ما بين أنه لا يعمل بالقرآن، وأنه يبدّل في القرآن؛ الذي لا يعمل: شُبِّه بالحمار يحمل أسفارًا، أيضًا في وصف بني إسرائيل في سورة الجمُعة، لكن الذي تبع الهوى وأصبح يعمل تصرفات عكسية بعدما أوتي القرآن؛ هذا مثله كمثل الكلب.

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَٰتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا} أن الذي يرفض الدين بعدما تلبس به، يُعاني من أزمات نفسيَّة كالتي يعانيها الحيوان حينما يُسلخ الجلد -والعياذ بالله- أي أن التخلُّص من الدين، نُكران وجود الله والتملُّص من الشريعة أشبه بالانسلاخ، شبَّههُ الله عزَّ وجلَّ بالانسلاخ، قضية تمزيق الجلد من على الجسد، وأنه من المفترض أن يكون هناك تلازم؛ لذلك بعضهم قال: الانسلاخ هنا ليس الانسلاخ من الآيات؛ بل الانسلاخ من العمل بالآيات.

مرة أخرى: بعضهم قال أن الانسلاخ هنا المقصود منه ماذا؟ ترك العمل بالقرآن، أو ترك العمل بالكتاب {ءَاتَيْنَاهُ ءَايَٰتِنَا} نحن قلنا أنه من محاور سورة الأعراف: التعامل الخاطئ مع الآيات، سواء التكذيب، سواء الإعراض، هنا بعدما أوتي الآيات فعل عكسها، أو المراوغة مع الآيات، مثل أصحاب السبت.

هنا أوتي الآيات، لكنه نزعها -والعياذ بالله- كي لا يعتمد أحد على ذكائه وقوته؛ لذلك الإمام الذهبي في ترجمة أحد الملاحدة المعرِضين وهو في كتابه "سير أعلام النبلاء" ذكر أحد الأشخاص وأشار إليه، وقال في النهاية أنه بالرغم من أنه كان ذكيًا وكان وكان، فقال بالرغم من هذا إلا أنه ألحد -والعياذ بالله- وأعرض عن شرع الله، فختم الإمام الذهبي بكلمة جميلة، قال: "لعن الله الذكاء بلا إيمان، ورضي الله عن البلادة مع التقوى"؛ أي أن الذكاء الذي يقود صاحبه إلى النار هذا لا نريده، وكما تكلمنا في قضية الثقافة الباهِتة.

"لعن الله الذكاء بلا إيمان، ورضي عن البلادة مع التقوى" لأن هذه إشكالية؛ هل يُشترط لكل تقي أن يكون بليدًا؟ لا أقصد ذلك، لكن أنا أقول أن أحيانًا الإنسان يطغى {أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ} [العلق:٧].

{فَانسَلَخَ مِنْهَا} قالوا أن العمل بالنسبة للإيمان هو كالجلد، فالذي يتعلَّم ولا يعمل أشبه بالمنسلِخ، والمنسلِخ يُعاني من أزمات نفسيَّة أنه يكون مشوَّهًا، فتخيَّل إنسانًا يمشي في الشارع بدون جلد، مسلوخًا، إنسان مشوه، فكذلك نفسيته

مشوَّهة، القضية الثانية أنه فقد الحماية، الجمال، فقد الأمان، هذه وظيفة الجلد أنه يحمي الإنسان، أنه زينة، فالعمل زينة للإيمان، العمل هو الذي يحميك من الانتكاس، من مجرَّد أنك تكون عارف معرفة باهتة، لديك معلومات عن الدين بدون أعمال؛ لذلك من أهم الكتيبات الصغيرة التي أنصح دائمًا بقراءتها كل فترة كتاب «**اقتضاء العلم العمل**» **للخطيب الغدادي**، باستمرار ليعرف لماذا يتعلَّم؟ يتعلم كي يعمل «إقتضاء العلم العمل»؛ أن العلم يستوجِب العمل، أنك تتعلم كي تعمل.

{ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا} فكلمة {انسلخ} كلمة عجيبة! وتشبيه قال عليه ابن عاشور: "مِن مُبتَكَرات القرآن" وأفاض سيد قطب بتفصيل الحالة النفسية التي يعيشها المنسلِخ، تخيل واحد يُسلَخ!

لذلك فعلًا الذي يذوق طعم الإيمان فترة من الفترات ثم يُعرِض عنه يظل يعيش في أزمة نفسية، لا يقدر على أن يفجُر مع الفجَّار تمامًا ولا يقدر أن يرجع إلا أن يشاء ربي شيئًا، يعيش في أزمة نفسية، يعيش حياة مشوهة.

{فَٱنسَلَخَ مِنهَا} أي من الآيات، قرر أن ينزع هذه الآيات بعد أن كانت الآيات مختلطة بلحمه ودمه. {فَٱنسَلَخَ مِنهَا} بمجرد أن ترك الجلد -نحن قلنا أن الجلد يعطي حماية- بمجرد أن ترك العمل وبمجرد أن ابتعد عن الآيات، الشيطان قال هذا مناسب، {فَأَتبَعَهُ ٱلشَّيطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلغَاوِينَ} أي لحقه وأدركه، {فَأَتبَعَهُم فِرعَونُ}، سار خلفهم حتى أدركهم ففلق الله البحر لموسى...وهنا أتبعه الشيطان أي سار خلفه حتى أدركه.

والطبري الوحيد الذي اختار قولًا لم أرَ أحدًا غيره اختاره، قال {فَأَتبَعَهُ ٱلشَّيطَٰنُ}: أي صيره له تابعًا، أي جعله يعمل عنده، لكن جمهور المفسرين قالوا أتبعه الشيطان أي بمجرد أن رآه يبتعد عن العمل ويبتعد عن الآيات، قال هذا مناسب أن يكون جنديًا من جنودي.

{فأتبعه ٱلشَّيطَٰنُ فكان من الغاويين} لاحظ الفاء السريعة، لحظات السقوط من على الجبل، لحظات سريعة، دائمًا الصعود صعب والنزول سهل، عندما تصعد السلم في البناية تتعب، لكن عند النزول تنزل بشكل أسهل، فدائمًا البناء صعب والهدم سهل، الوقوع سهل -نسأل الله السلامة والعافية.

كما سيأتي معنا في آخر سورة الأعراف تشبيه لمن يسقط مع إغواء الشياطين في النهاية {إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا إِذَا مَسَّهُم طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيطَٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبصِرُونَ}، وهناك من لا يقدرون أن يوقفوا أنفسهم {وَإِخوَانُهُم يَمُدُّونَهُم فِى ٱلغَىِّ ثُمَّ لَا يُقصِرُونَ} مستمر في الوقوع في المعاصي ولا يستطيع التوقف.

فهنا مشهد فانلسخ... فأتبعه...فكان من الغاوين، أي أنه انضم لمجموعة الغاوين وصار واحدًا منهم، صار واحدًا أصيلًا معهم –والعياذ بالله– بعدما كان مع أهل الإيمان.

فالغواية تبدأ من ترك الآيات ثم ترك العمل بها {فكان من الغاوين}، إذًا الغواية ترك الآيات {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُم وَمَا غَوَىٰ}[النجم:٢] إثبات الوحي في سورة النجم في المعراج، فالغواية بالبعد عن الوحي والبعد عن العمل بالوحي.

فانسلخ فأتبعه فكان، انظر إلى السرعة، الشيطان لا يضيع أي وقت، الشيطان عندما يجد الشخص بدأ في الابتعاد؛ يلتقطه على الفور قبل أن يرجع، وهذا ما يجب أن يكون عليه الداعية، عندما يجد من يبتعد، فورًا يذهب ليعيده.

{فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها} هذه الآيات كانت سترفعه، أحيانًا الناس ترضى بحطام الدنيا {ولكنه أخلد إلى الأرض}، فأحيانًا الشخص يزهد في تعلم القرآن، يزهد في تعلم الشرع، ويحرص على حطام الدنيا، وهذه الآيات هي التي سوف ترفعه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين)[١١].

{ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه} لِم لَم يرفعه الله؟ هو الذي رفض، هو الذي اختار، مثل {آتيناه آياتنا فانسلخ} هنا {لرفعناه ولكنه أخلد} الخلود هو الرضا، راضٍ بالدنيا لا يريد غيرها، {إنا ها هنا قاعدون} {ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ}[التوبة:٨٦] المنافقون في غزوة تبوك لا يريدون الخروج بل القعود، أتقعدون مع النساء؟ نعم نحن نريد أن نقعد مع النساء والأطفال! نحن راضون بالدنيا وجبناء! راضون أن نكون في هذه المنزلة الدنيئة؛ فهناك من يرتضي لنفسه ذلك.

{أخلد إلى الأرض واتبع هواه} لابد أن يعيش تابعًا، إما أن يتبع للشريعة، أو يتبع الهوى، الإنسان مفطور على ذلك، فعندما ترك الشرع اتبع الهوى {فاتبع هواه}.

---

١١ [عن عمر بن الخطاب:] ، أَنَّ نافِعَ بنَ عبدِ الحارِثِ، لَقِيَ عُمَرَ بعُسْفانَ، وَكانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ على مَكَّةَ، فَقالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ على أَهْلِ الوادِي، فَقالَ ابْنَ أَبْزى، قالَ: وَمَنِ ابنُ أَبْزى؟ قالَ: مَوْلًى مِن مَوالِينا، قالَ: فاسْتَخْلَفْتَ عليهم مَوْلًى؟ قالَ: إنَّه قارِئٌ لِكِتابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وإنَّه عالِمٌ بالفَرائِضِ، قالَ عُمَرُ: أَما إنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قدْ قالَ: إنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بهذا الكِتابِ أَقْوامًا، وَيَضَعُ به آخَرِينَ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٨١٧ • [صحيح]

الشهوة لا يشبع الإنسان منها

{فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ} جماهير المفسرين قالوا أن هذا مثل لمن لا يتأثر بمواعظ القرآن، {تحمل عليه} تخيفه فيظل يلهث وراء الشهوات، تبتعد عنه ولا تكلمه في أي شيء أيضًا يظل يلهث، توعظه وتخوّفه بالنار لا يتأثر، تبتعد عنه أيضًا لا يتأثر! الكلب تحمل عليه يلهث، تتركه يلهث، تبتعد عنه يستمر في اللهث؛ لأن الكلب قالوا أن هناك تغيرًا في خلقته عن بقية الحيوانات، في مجرى التنفس الخاص به في أصل الخلقة هناك اختلاف، فقالوا **كأن الذي ابتعد عن الوحي حدث تغييرٌ في افطرته فيظل يلهث!**

يلهث تأتي مع العطشان، كذلك **الشهوة لا يشبع الإنسان منها**، وتكلمنا في آية {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ} أن مسألة المجتمع الذي يدخل في الشهوات لن يشبع كما قال ربنا {وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُۚ}، الشهوات أشبه بالشرب من البحر المالح، لا يشبع الإنسان منها بل يزداد ظمأ، كما قال ربنا {وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً}[النور:٣٩] تلك هي الشهوات والشبهات، يظل يتعب ويتعب ويظل ظمآنًا {حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ} فهنا يظل يلهث، أي شهوة يفعلها يشعر بمتعة ولذة سريعة ثم يشعر بالظمأ فيبحث عن غيرها.

لذلك تكلمنا عن مسألة تطور الفجور في المجتمعات؛ لأنه غير شبعان، مثل الأفلام الإباحية ثم ممارسة الزنا ثم الشذوذ وأيضًا لا يشبع بعدها! يظل يفكر في كل شهوة ولا يشبع، كالذي يشرب من البحر المالح لا يشبع أبدًا، فيظل يلهث وراء الشهوات، لماذا؟ لأنه انسلخ من الآيات حله الوحيد أن يعود!

"إن في القلب فاقة" -كما قال ابن القيم- "لا يسد هذه الفاقة إلا العبودية" مهما سُدّت بأي شيء آخر سيعود ظمآنًا. {فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْۚ}

فالذي لا ينتفع بمواعظ القرآن ولا يتأثر بكلام الله سبحانه وتعالى له نصيب من هذا المثل، لا يتأثر، يظل في حالة لهث دائم، {فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث} هل هذا خاص بهذا الشخص فقط؟ أمية كان أو بلعام؟

{ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}

من محاور السورة التكذيب بالآيات والإعراض عن الآيات، كل الذي سيتلبس بشيء من التكذيب بالآيات، سيناله جزء من هذا التشبيه كالكلب -والعياذ بالله-.

سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

{ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتذكرون* سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ} هذا أسوأ مثال لهم –والعياذ بالله– وبئس مثلًا لهم {وأنفسهم كانوا يظلمون* من يهد الله فهو المهتدي} نسأل الله عز وجل أن يهدينا وأن يصرف عنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، {ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون} نعوذ بالله من هذه الخسران.

معذرة هناك تنبيه سريع –أنا آسف: كنت ذكرت –وأحد الإخوة جزاه الله خيرًا نبهني أني أخطأت– وأنا أتكلم عن مقام سيدنا هارون وكيف رفعه الله في السماء بجهده مع أخيه موسى، أنا قلت أن الاثنين في سماء واحدة فأخطأت ووهمت، بل سيدنا عيسى وسيدنا يحيى هما اللذان في سماء واحدة مع بعضهما في نفس السماء، لكن هارون في الخامسة وموسى في السادسة، أنا أقصد أن الله عز وجل رفع هارون إلى السماء الخامسة وبعده سيدنا موسى، وبعده سيدنا إبراهيم في مقام عالي جدًا ،وذلك بجهده مع سيدنا موسى، فأنا وهمت أو كانت زلة لسان وقلت أنه رفعه في نفس السماء، لكن الصحيح كما في البخاري وغيره أن هارون في السماء الخامسة وموسى في السادسة.[١٢]

١٢ [عن مالك بن صعصعة الأنصاري:] بَيْنَا أَنَا عِنْدَ البَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ، واليَقْظَانِ - وذَكَرَ: يَعْنِي رَجُلًا بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ -، فَأُتِيتُ بطَسْتٍ مِن ذَهَبٍ، مُلِئَ حِكْمَةً وإِيمَانًا، فَشُقَّ مِنَ النَّحْرِ إلى مَرَاقِّ البَطْنِ، ثُمَّ غُسِلَ البَطْنُ بمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ مُلِئَ حِكْمَةً وإِيمَانًا، وأُتِيتُ بدَابَّةٍ أبْيَضَ، دُونَ البَغْلِ وفَوْقَ الحِمَارِ: البُرَاقُ، فَانْطَلَقْتُ مع جِبْرِيلَ حتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، قيلَ: مَن هذا؟ قالَ جِبْرِيلُ: قيلَ: مَن معكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ، قيلَ: وقدْ أُرْسِلَ إلَيْهِ؟ قالَ: نَعَمْ، قيلَ: مَرْحَبًا به، ولَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فأتَيْتُ علَى آدَمَ، فَسَلَّمْتُ عليه، فَقالَ: مَرْحَبًا بكَ مِن ابْنٍ ونَبِيٍّ، فأتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، قيلَ مَن هذا؟ قالَ: جِبْرِيلُ، قيلَ: مَن معكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ، قيلَ: أُرْسِلَ إلَيْهِ، قالَ: نَعَمْ، قيلَ: مَرْحَبًا به، ولَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فأتَيْتُ علَى عِيسَى، ويَحْيَى فَقالَا: مَرْحَبًا بكَ مِن أخٍ ونَبِيٍّ، فأتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّالِثَةَ، قيلَ: مَن هذا؟ قيلَ: جِبْرِيلُ، قيلَ: مَن معكَ؟ قيلَ: مُحَمَّدٌ، قيلَ: وقدْ أُرْسِلَ إلَيْهِ؟ قالَ: نَعَمْ، قيلَ: مَرْحَبًا به، ولَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فأتَيْتُ علَى يُوسُفَ، فَسَلَّمْتُ عليه قالَ: مَرْحَبًا بكَ مِن أخٍ ونَبِيٍّ، فأتَيْنَا السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ، قيلَ: مَن هذا؟ قالَ: جِبْرِيلُ، قيلَ: مَن معكَ؟ قيلَ مُحَمَّدٌ، قيلَ: وقدْ أُرْسِلَ إلَيْهِ؟ قيلَ: نَعَمْ، قيلَ: مَرْحَبًا به ولَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فأتَيْتُ علَى إدْرِيسَ، فَسَلَّمْتُ عليه، فَقالَ: مَرْحَبًا بكَ مِن أخٍ ونَبِيٍّ، فأتَيْنَا السَّمَاءَ الخَامِسَةَ، قيلَ: مَن هذا؟ قالَ: جِبْرِيلُ، قيلَ: ومَن معكَ؟ قيلَ: مُحَمَّدٌ، قيلَ: وقدْ أُرْسِلَ إلَيْهِ؟ قالَ: نَعَمْ، قيلَ: مَرْحَبًا به ولَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فأتَيْنَا علَى هَارُونَ فَسَلَّمْتُ عليه، فَقالَ: مَرْحَبًا بكَ مِن أخٍ ونَبِيٍّ، فأتَيْنَا علَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، قيلَ: مَن هذا؟ قيلَ جِبْرِيلُ، قيلَ: مَن معكَ؟ قيلَ: مُحَمَّدٌ، قيلَ: وقدْ أُرْسِلَ إلَيْهِ مَرْحَبًا به ولَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فأتَيْتُ علَى مُوسَى، فَسَلَّمْتُ عليه، فَقالَ: مَرْحَبًا بكَ مِن أخٍ ونَبِيٍّ، فَلَمَّا جَاوَزْتُ بَكَى، فقِيلَ: ما أبْكَاكَ: قالَ: يا رَبِّ هذا الغُلَامُ الذي بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِن أُمَّتِهِ أفْضَلُ ممَّا يَدْخُلُ مِن أُمَّتِي، فأتَيْنَا السَّمَاءَ السَّابِعَةَ، قيلَ مَن هذا؟ قيلَ: جِبْرِيلُ، قيلَ مَن معكَ؟ قيلَ: مُحَمَّدٌ، قيلَ: وقدْ أُرْسِلَ إلَيْهِ، مَرْحَبًا به ولَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فأتَيْتُ علَى إبْرَاهِيمَ فَسَلَّمْتُ عليه، فَقالَ: مَرْحَبًا بكَ مِن ابْنٍ ونَبِيٍّ، فَرُفِعَ لي البَيْتُ المَعْمُورُ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقالَ: هذا البَيْتُ المَعْمُورُ يُصَلِّي فيه كُلَّ يَومٍ سَبْعُونَ ألْفَ مَلَكٍ، إذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إلَيْهِ آخِرَ ما عليهم، ورُفِعَتْ لي سِدْرَةُ المُنْتَهَى، فَإِذَا نَبِقُهَا كَأَنَّهُ قِلَالُ هَجَرَ ووَرَقُهَا، كَأَنَّهُ آذَانُ الفُيُولِ في أصْلِهَا أرْبَعَةُ أنْهَارٍ نَهْرَانِ بَاطِنَانِ، ونَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقالَ: أمَّا البَاطِنَانِ: فَفِي الجَنَّةِ، وأَمَّا الظَّاهِرَانِ: النِّيلُ والفُرَاتُ، ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلَاةً، فأقْبَلْتُ حتَّى جِئْتُ مُوسَى، فَقالَ: ما صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلَاةً، قالَ: أنَا أعْلَمُ بالنَّاسِ مِنْكَ، عَالَجْتُ بَنِي إسْرَائِيلَ أشَدَّ المُعَالَجَةِ، وإنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ، فَارْجِعْ إلى رَبِّكَ، فَسَلْهُ، فَرَجَعْتُ، فَسَأَلْتُهُ، فَجَعَلَهَا أرْبَعِينَ، ثُمَّ مِثْلَهُ، ثُمَّ ثَلَاثِينَ، ثُمَّ مِثْلَهُ فَجَعَلَ عِشْرِينَ، ثُمَّ مِثْلَهُ فَجَعَلَ عَشْرًا، فأتَيْتُ مُوسَى، فَقالَ: مِثْلَهُ، فَجَعَلَهَا خَمْسًا، فأتَيْتُ مُوسَى فَقالَ: ما صَنَعْتَ؟ قُلْتُ : جَعَلَهَا خَمْسًا، فَقالَ مِثْلَهُ، قُلْتُ: سَلَّمْتُ بخَيْرٍ، فَنُودِيَ إنِّي قدْ أمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وخَفَّفْتُ عن عِبَادِي، وأَجْزِي الحَسَنَةَ عَشْرًا، وقالَ هَمَّامٌ، عن قَتَادَةَ، عَنِ الحَسَنِ، عن أبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عنْه، عَنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في البَيْتِ المَعْمُورِ.

أسأل الله عز وجل أن يرفعنا بالقرآن وأن يكون حجة لنا لا علينا، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

ملحق

[عن عائشة أم المؤمنين:] لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَقالَ أَبُو صَالِحٍ: حدَّثَنِي عبدُ اللَّهِ، عن يُونُسَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْرِ، أنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالَتْ: لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فيه رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ طَرَفَيِ النَّهَارِ، بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتُلِيَ المسْلِمُونَ، خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا قِبَلَ الحَبَشَةِ، حتَّى إذَا بَلَغَ بَرْكَ الغِمَادِ لَقِيَهُ ابنُ الدَّغِنَةِ، وَهو سَيِّدُ القَارَةِ، فَقالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فأنَا أُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ في الأرْضِ، فأعْبُدَ رَبِّي، قالَ ابنُ الدَّغِنَةِ: إنَّ مِثْلَكَ لا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ، فإنَّكَ تَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ علَى نَوَائِبِ الحَقِّ، وَأَنَا لكَ جَارٌ، فَارْجِعْ فَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَادِكَ، فَارْتَحَلَ ابنُ الدَّغِنَةِ، فَرَجَعَ مع أَبِي بَكْرٍ، فَطَافَ في أَشْرَافِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَقالَ لهمْ: إنَّ أَبَا بَكْرٍ لا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلَا يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلًا يُكْسِبُ المَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ علَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فأنْفَذَتْ قُرَيْشٌ جِوَارَ ابْنِ الدَّغِنَةِ، وَآمَنُوا أَبَا بَكْرٍ، وَقالوا لِابْنِ الدَّغِنَةِ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ، فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ في دَارِهِ، فَلْيُصَلِّ، وَلْيَقْرَأْ ما شَاءَ، وَلَا يُؤْذِينَا بذلكَ، وَلَا يَسْتَعْلِنْ به، فإنَّا قدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، قالَ ذلكَ ابنُ الدَّغِنَةِ لأَبِي بَكْرٍ، فَطَفِقَ أَبُو بَكْرٍ يَعْبُدُ رَبَّهُ في دَارِهِ، وَلَا يَسْتَعْلِنُ بالصَّلَاةِ، وَلَا القِرَاءَةِ في غيرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لأَبِي بَكْرٍ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بفِنَاءِ دَارِهِ وَبَرَزَ، فَكانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَيَقْرَأُ القُرْآنَ، فَيَتَقَصَّفُ عليه نِسَاءُ المُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، يَعْجَبُونَ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً، لا يَمْلِكُ دَمْعَهُ حِينَ يَقْرَأُ القُرْآنَ، فأفْزَعَ ذلكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ المُشْرِكِينَ، فأرْسَلُوا إلى ابْنِ الدَّغِنَةِ، فَقَدِمَ عليهم فَقالوا له: إنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ علَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ في دَارِهِ، وإنَّه جاوَزَ ذلكَ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بفِنَاءِ دَارِهِ، وَأَعْلَنَ الصَّلَاةَ وَالقِرَاءَةَ، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، فَأْتِهِ، فإنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ علَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ في دَارِهِ فَعَلَ، وإنْ أَبَى إلَّا أَنْ يُعْلِنَ ذلكَ، فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فإنَّا كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لأَبِي بَكْرٍ الِاسْتِعْلَانَ، قالَتْ عَائِشَةُ: فأتَى ابنُ الدَّغِنَةِ أَبَا بَكْرٍ، فَقالَ: قدْ عَلِمْتَ الذي عَقَدْتُ لكَ عليه، فَإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ علَى ذلكَ، وإمَّا أَنْ تَرُدَّ إلَيَّ ذِمَّتِي، فإنِّي لا أُحِبُّ أَنْ تَسْمع العَرَبُ، أَنِّي أُخْفِرْتُ في رَجُلٍ عَقَدْتُ له، قالَ أَبُو بَكْرٍ: إنِّي أَرُدُّ إلَيْكَ جِوَارَكَ، وَأَرْضَى بجِوَارِ اللَّهِ وَرَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَئِذٍ بمَكَّةَ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «قَدْ أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، رَأَيْتُ سَبْخَةً ذَاتَ نَخْلٍ بيْنَ لَابَتَيْنِ»، وَهُما الحَرَّتَانِ، فَهَاجَرَ مَن هَاجَرَ قِبَلَ المَدِينَةِ حِينَ ذَكَرَ ذلكَ رَسولُ اللَّهِ

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٢٠٧ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤)

صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وَرَجَعَ إلى المَدِينَةِ بَعْضُ مَن كانَ هَاجَرَ إلى أَرْضِ الحَبَشَةِ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا، فَقالَ له رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «عَلَى رِسْلِكَ، فإنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي»، قالَ أَبُو بَكْرٍ: هلْ تَرْجُو ذلكَ بأَبِي أَنْتَ؟ قالَ: «نَعَمْ»، فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ علَى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٢٢٩٧ • [صحيح]